د. أحلام بيضون

عرب بكاؤون وعرب استشهاديون

علمتنا كتب المدرسة حين كنا في الصفوف الإبتدائية أن العربي يمتاز بالشجاعة والإباء والأنفة والكرم. حفظنا ذلك عن ظهر قلب كبيت الشعر. وكنا نختال كالديكة، فخراً واعتزازاً بأصلنا الكريم. وتعلمنا أيضا، منذ نعومة أظفارنا، أن العدو الصهيوني فرض بالقوة، وأن الجيوش العربية، غير المزودة بالعتاد اللازم، لم تستطع ربح المعركة رغم شجاعتها واستبسالها. وقد فرَّ الفلسطينيون من موطنهم بسبب الإرهاب الصهيوني والمجازر التي ارتكبها.
لم تعلمنا المدارس أن من نصِبوا حكاماً على العرب قد تخاذلوا وتآمروا وتواطؤا ووضعوا يدهم على مقدرات الأوطان، فاستباحوها واستغلوها لمصالحهم. لم تعلمنا كتبنا المدرسية أن الزعماء في بلادنا قد أنشأوا جامعة عربية ليس ليتحدوا ويوحدوا بلدانهم وشعوبهم التي رسَّم الإستعمار حدودها، ليكرسوا التقسيم من خلال تأكيدهم على سيادة كل من دولهم، التي أصبحت إثنتين وعشرين، أي على القرار المنفرد لكل زعيم على حدا، حيث يكون القرار لدواع شخصية أو بوحي أجنبي، وليس لدواع المصلحة العربية العامة، أو حتى مصلحة شعبه بالذات.
مضى على مغادرة الأتراك للبلدان العربية حتى الآن نحو تسعين سنة، وحتى الآن لم يتحرر العرب بالمعنى الصحيح، ولم يبنوا دولتهم القوية، أو حتى اتحادهم، أو حتى جامعتهم العربية الفاعلة. رغم ما خص الله به العرب من ديانات سماوية تعتبر مكنزا للعلوم للعلوم والأخلاق والتنظيم، وما خص بلدانهم من مواقع استراتيجية وثروات طبيعية وطاقات بشرية، فلم يزل العرب حتى يومنا هذا تحت رحمة القوى الدولية الكبرى التي تستغل ثرواتهم، وتستخف عقولهم. والإستخفاف هنا يشمل الشعوب والحكام على حد سواء: فعلى مستوى الشعوب تطمئن الدول المستفيدة من وضعية العرب الحالية إلى أن الشعوب العربية رغم ما تتمتع به من شجاعة وذكاء، فإنها شعوب سريعة الغضب، وسهلة الإنقياد والطاعة للزعيم. فهذا الأخير لا يزال يمثل بالنسبة لها شيخ القبيلة أو العشيرة أو السيد الأكبر والأجل في العائلة. وفي ذلك ما فيه من وجوب الطاعة والإحترام. فكلمته مسموعة، وأقواله أوامر، وأوامر مطاعة، وشخصه مبجل. لم يتمكن الدين، والشريعة الإسلامية تحديدا، أن ينتزع هذه الأعراف، رغم ما ورد في كتاب الله وسنته من قواعد ونظم تجعل "العدل أساس الملك"، وتبين ما يجب أن يتحلى به الحاكم من خصال حميدة، وحكمة واعتدال وعدل وإنصاف وتفاني في خدمة الرعية، وحفاظ على المال العام، وتحويل الأراضي من موات إلى منتجة، واقتطاعها لمن يحيها. ولم تتعلم الشعوب العربية كذلك من النظم الغربية التي اقتبستها أو فرضت عليها، حيث بقيت حبرا على ورق دساتيرها. تلك الدساتير التي أسيئ تفسيرها وتطبيقها، وتم استغلالها لتكريس حكام مدى الحياة، في لعبة خبيثة، هدفت إلى إقصاء زعامات الشعب الفاعلة، للإستمرار باستغلال مقدرات البلاد لمنافع خاصة. لقد تم تشوية النظام الديموقراطي الغربي، كما تم تشويه الشريعة الإسلامية. إن الحكام يتصرفون وهم مطمئنيت إلى أن الشعوب، وإن كانت تغضب وتصيح، فهي لا تؤذي ولن تصل إلى درجة إزاحتهم بالقوة ومحاسبتهم على ما اقترفوه.
لقد عمَّ الفساد البلاد، وتعرضت الشعوب لشتى أنواع الجرائم وعمليات الإبادة الجماعية، والإغتيالات لخيرة قادتها وشبانها، والإنتهاك لمقدساتها، ولكرامات أفرادها ، بما يتنافى مع أبسط حقوق الإنسان. لقد اغتصبت الأراضي والبيوت، وأذل المواطنون أفرادا وشعوبا، من قبل الدول الإستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة، والكيان الصهيوني الغاصب، الذي غرس كالسهم في قلب الأرض العربية وقلب لأمة العربية. رغم ذلك ، لم يحرك القادة العرب ساكنا. إنهم يتواطؤن على

حركات المقاومة، ويسكتون على الأعمال العدائية والجرائم التي يقترفها الكيان الصهيوني العنصري، مما يسهل استباحة الدم العربي، ويترك المعتدي في منأى عن المحاسبة. إنهم يصمتون صمت الموتى، يخنعون خنوع السلاحف المعمرة. أما الشعوب فتصهل دون أن يهز صهيلها العروش.

وبعد، ألم يحن الوقت لكي يصحى ضمير الحكام العرب، ويعمدون فورا إلى تصحيح ما ابتلوا به من مخالفة الشرائع السماوية والوضعية، ويزيلوا ما سببوه لشعوبهم من ويلات ودمار؟! ألم يحن الوقت للإنتفاض في وجه المستعمرين؟ ألم يحن الوقت لإظهار شجاعتهم وأنفتهم وعزتهم؟ والشعوب، هي الأخرى ، متى ستنتفض وتنتقل من الصمت أو من الصراخ إلى الفعل؟ متى ستقدم على مطالبة حكامها بتصحيح ما أفسدوه، هم وآبائهم؟ أو أن تقدم على انتزاعهم من عروشهم، كما تنتزع الشوكة السامة من الجسد...